المنزع الحِجَاجي
في
سورة التوحيد

م.د. رائد مجيد جبار
قسم اللغة العربية/كلية الآداب/ جامعة ذي قار
تخصص : اللغة العربية – البلاغة والنقد

أ.م.د هادي شندوخ حميد
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة ذي قار
تخصص : اللغة العربية – النحو والدلالة

الملخص :

إنماز النص القرآني بسمات جعلت منه قبلة للباحثين عن الحقيقة عقيدة وتشريعا وفلسفة ولغة ونظاما , حتى وسم بأنه نص حجاجي جاء معالجا للتصورات والاوهام والعقائد الفاسدة التي يحملها البشر . ولاشك في ذلك فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , له رؤية في كل خطاباته تعتمد الاستمالة والتأثير والاقناع في مخاطبيه بلغة تكشف عن القصد او الهدف في كل اشاراته, وبتنوع مقاماته تتنوع الحجج الواردة فيه , فمن آياته ما هو برهان يستميل العقل ليحركه صوب الفكرة , ومنه ما هو خطاب وجداني يستفز النفس ليجذبها ترغيبا وترهيبا حيث يريد .

من تلك الرؤية ولد البحث منقبا عن استراتيجيات الحجاج وتقنياته واساليبه في سورة التوحيد , فكان الخطاب الحجاجي حاضرا في تلك السورة حيث يقوم على اقناع السامع بإبطال الفكرة المسبقة واحلال ففكرة الصواب محلها , ليتولد الاثبات والنقض لتلك القبليات المتصورة , وتلك الرؤية هي ما يقوم عليها الدرس الحجاجي المعاصر من خلال تقنين ادوات الاقناع والتأثير في سلوكيات المخاطب بالاعتماد على تقنيات الاستدلال والامتاع والبيان . وان كان الاستدلال اكثر حضورا في السورة , فنوع الحجاج قد تمثل عقليا ومنطقيا في اجواء السورة وصفا وتدرجا واسلوبا .

الكلمات المفتاحية :

(سورة التوحيد , الحجاج , التداولية , الاقناع , الاسلوب , الاستمالة) .

المقدمة

إنماز النص القرآني بسمات جعلت منه قبلة للباحثين عن الحقيقة عقيدة وتشريعا وفلسفة ولغة ونظاما، حتى وسم بانه نص حجاجي جاء معالجا للتصورات والاوهام والعقائد الفاسدة التي يحملها البشر، ولا شك في ذلك فهو كتاب لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. له رؤية في كل خطاباته تعتمد الاستمالة والتأثير والاقناع في مخاطبيه بلغة تكشف عن القصد او الهدف في كل اشاراته، بتنوع مقاماته تتنوع الحجج الواردة فيه فمن آياته ما هو برهان يستميل العقل ليحركه صوب الفكرة ومنه ما هو خطاب وجداني يستفز النفس ليجذبها ترغيبا وترهيبا حيث ما يريد.

من تلك الرؤية ولد البحث منقبا عن استراتيجيات الحجاج وتقنياته واساليبه في سورة التوحيد وهي السورة التي قيل فيها عن النبي صلى الله عليه واله وسلم: «من قرأ سورة قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وأمن بالله » (1) وقيل فيها: ((أنها تعدل ثلث القرآن فاستنبط العلماء لذلك وجهاً مناسباً وهو أن القرآن مع غزارة فوائده اشتمل على ثلاثة معانٍ فقط: معرفة ذات الله تعالى وتقدّيسه، ومعرفة صفاته وأسمائه، ومعرفة أفعاله وسننه مع عباده. ولما تضمنت سورة الإخلاص أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس، وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن.)) (2) .ولما فيها من خصائص تدل على مزيد فضيلة فيها فقد سميت بسورة التفريد وسورة التجريد وسورة التوحيد وسورة الإخلاص ، ولما تحمله من موقف يتعلق بأسباب نزولها حيث الجدل والتشكيك والطعن في ذات الله تارة بالمطالبة بنسب الخالق كما يتصورون وتارة بالإلحاح على وصف الله سبحانه وتعالى، من كل ذلك كان الخطاب الحجاجي حاضرا في تلك السورة حيث يقوم على اقناع السامع بإبطال الفكرة المسبقة واحلال فكرة الصواب محلها، ليتولد الاثبات والنقض لتلك القبليات المتصورة .وتلك الرؤية هي ما يقوم عليها الدرس الحجاجي المعاصر من خلال تقنين أدوات الاقناع والتأثير في سلوكيات المخاطب بالاعتماد على تقنيات الاستدلال والامتاع والبيان . وان كان الاستدلال أكثر حضورا في السورة , فنوع الحجاج قد تمثل عقليا ومنطقيا في أجواء السورة وصفا وتدرجا واسلوبا ، فالخطاب القرآني تقسم حجاجيا بصورتين كما يرى بعض المعاصرين , فمنه ما هو حجاج عقلي منطقي واخر حجاج تمثيلي بلاغي . وكله مرتبط بموضوعه ومتلقيه . لذا جاء البحث ليكشف ذلك وصولا الى خاتمة البحث ونتائجه .

تبدا سورة التوحيد ب (قل هو الله احد) أي اثبات الالوهية لله ، بمعنى نفي الضد والند وبمعنى أن حقيقته غير مركبة من الأجزاء ، وهي النتيجة المتوخاة من الخطاب الإلهي في هذه السورة الرامية الى اقناع المخاطب وتقرير حقيقة الذاتية الخالصة لله سبحانه وتعالى في ذهنه . هذه النتيجة جاءت مرفقة بالأدلة والنتائج التي تعزز الحقيقة المرادة من تلك السورة من خلال توالي الحجج المؤكدة لمسلك الاحدية بالشكل التالي :

الله الصمد _____

لم يلد _____

ولم يولد _____

_____ولم يكن له كفوا احد

وهي متتابعات تندرج في إقرار النتيجة الأولى من السورة المتمثلة بالمطلب الرئيس وهو التوحيد (قل هو الله احد) . يلحظ فيها ومن خلال المقطع الأول من السورة العلاقات الحجاجية القائمة بين النتيجة والحجج المتوالية أي انها كلها تسير في اتجاه حجاجي واحد هو اثبات الوحدانية لله . فالسياق هو سياق الوجهة الحجاجية الواحدة وليس سياق التعارض الحجاجي . ويمكن ان نمثل له بالشكل التالي :

_ قل هو الله احد _____ بلا شريك لأنه هو الاحد المغاير بلا عددية او تجزء .

_ الله الصمد _____أي الغني والمقصود في الحوائج دون غيره .

_ لم يلد ولم يولد _____ من لم يكن شأنه ان يلد ليس من شانه ان يولد .

_ لم يكن له كفوا احد _____ لايحتمل ان نتصور له كفوا فكل شي دونه .

وبذلك التنوع تظهر العلاقات الحجاجية التي تربط بين الآية الأولى باعتبارها نتيجة والآيات التالية لها باعتبارها حججا وادلة لصالح هذه النتيجة . بلحاظ ان التنوع في تلك الصياغات قد حمل اكثر من علاقة .

فما يتضح منها هو العلاقة السببية وهي تقوم على رؤية ((ان الحدث ضمني يقع على انه نتيجة او اثر لمجموعة من الأشياء الأخرى))(3) , أي بما انه أحد والأحد : ((وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجا ولا ذهنا ولذلك لا يقبل العد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد , فإن كل واحد له ثان وثالث إما خارجا وإما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا ، و أما الأحد فكل ما فرض له ثانيا كان هو هو لم يزد عليه شيء)) (4) ، بذلك الوصف فإن من كان أحدا فحتما يكون صمدا أي مقصودا في الحوائج على الإطلاق , وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواه يُحتاج إليه فيقصده كلُّ ما صدق عليه أنه شيء غيره في ذاته وصفاته وآثاره (5) وهو ليس من شأنه اين يولد أو ان يكون مولودا . بذلك التمظهر من الارتباط السببي تتكشف العلاقات النصية بشكل يتفرع من الايات الواحدة تلو الأخرى ، فلانه احد وجب أن لا يكون جسماً وإذا لم يكن جسماً لابد ان يكون صمدا أي مقصودا ومن كان صمدا لابد ان يتعالى عن ادراك البشر مشابهة او مماثلة فلايكون والدا او مولودا فينطبع بسنخ صفات البشر ومن كان كذلك فحتما لا يضاهيه احد .

وتتولد علاقة الاستدلال من تتابع الحجج في السورة تلو النتيجة التي انطلقت منها فمن كان أحدا كان صمدا وكان بلا مغاير او شبيه في الوجود ((هذه الصفات الثلاث المنفية وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديته تعالى بوجه ، لكن الأسبق إلى الذهن تفرعها على صفة صمديته ،أما كونه لم يلد فإن الولادة التي هي نوع من التجزئ والتبعض بأي معنى فسرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد ، وحاجة المركب إلى أجزائه ضرورية والله سبحانه صمد ينتهي إليه كل محتاج في حاجته ولا حاجة له، وأما كونه لم يولد فإن تولد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة من المتولد إلى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له ، وأما أنه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء

فرض كفوا له في ذاته أو في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة)) (6) , فالعلاقة الحجاجية ربطت بين النتيجة والحجج من رؤية كلية وبين حجة وأخرى في السورة من رؤية جزئية ، وهو ماتوارد في الدرس الحجاجي ان العلاقات الرابطة قد تكون بين النتيجة الكلية والحجج او بين نتيجة وحجة وهو ما يسمى بالوجهة او الاتجاه الحجاجي ويعني هذا المفهوم أنه إذا كان قول ما يمكن إنشاء فعل حجاجي، فإن القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي , وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا ، ويمكن ان مثل لذلك :

حجة ____________________

نتيجة ____________ مجموعة من الحجج

عناصر صريحة ____________ عناصر مضمرة

بعد هذا المقطع الأول المشتمل على النتيجة العامة للسورة أي الهدف الحجاجي المقصود والأدلة له وعليه ننتقل الى القضايا المرتبطة بالنتيجة الواردة في الآية وهي (قل هو الله احد) ، فاذا كان الانسان مطلوبا منه ان يوحد ربه ويعبده وينزهه عما سواه فقد يطرح السؤال التالي : كيف نوحده وننزهه ؟ ، يقول بعض المفسرين (7) ان الخطاب الامري بالتوحيد هو على مقامات غايتها التوحيد والتنزيه:

الأول : مقام السابقين المقربين الناظرين إلى حقائق الأشياء من حيث هِيَ هِيَ ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأنه هو الذي لأجله يجب وجوده فما سوى الله عندهم معدوم ، فقوله : { هو } إشارة مطلقة . ولما كان المشار إليه معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين فكان قوله : { هو } إشارة من هؤلاء المقربين إلى الله فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز فكانت لفظة { هو } كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء .

المقام الثاني : مقام أصحاب اليمين المقتصدين فهم شاهَدُوا الحق موجوداً وشاهدوا الممكنات موجودة فحصلت كثرة في الموجودات فلم تكن لفظة { هو } تامة الإفادة في حقهم فافتقروا معها إلى مميز فقيل لأجلهم { هو الله } .

والمقام الثالث : مقام أصحاب الشمال وهم الذين يجوزون تعدد الإله فقُرن لفظ { أحد } بقوله : { هو الله } إبطالاً لمقالتهم.

وبتلك المقدمة تتكشف دلالات التتابع الحجاجي في السورة ((أي أن المتكلم في كل حجة يقدم عنصرا دلاليا لصالح عنصر آخر : بحيث نكون أمام وضعيتين خطابيتين مختلفتين: وضعية مصرح بها معلومة وأخرى ضمنية , فالموجهات التعبيرية تحقق توجيه المعطى نحو النتيجة مباشرة؛ لأنها بمثابة الأوتاد تيسر عملية إذعان المستقبل وتسليمه، بدءاً من العناصر اللغوية الدنيا وصولا إلى التركيب.)) (8) . فالدافع الى تلك الاقوال هو الدافع الحجاجي لغرض الاسترشاد والنظر والاعتبار في ادراك الحقيقة الإلهية بعيدا عن تخرصات الواهمين والشاكين في وجوده دون ان ينحصر الخطاب في السورة الى متلق حاضر او مقيد بسبب نزول معين , بل الامتداد والجريان مقترنان في خطاب السورة دون توقف في مسارات الزمن والمكان ، يقول الباحث عبد الله صولة: "فالقرآن بهذا خطاب موجه إلى متلق فعلي ومتلق مفترض"(9) .

ولعل من اهم تلك القضايا المرتبطة بالنتيجة الموجهة الى متلق فعلي او مفترض هي التأسيس لطلب القصد والاحتياج الى الغني في ذاته عن كل شي ((هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق ولا يستغنون عنه)) (10) ، وهو لا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه . وهذا الخطاب شامل لكل متلق فعلي او مفترض في الحياة .

اولا : التقنيات المنطقية :

والخطاب الموجه في التدرج الحجاجي بعد النتيجة الأولى يقود الى مجموعة من التقنيات التي تمثل استراتيجيات حجاجية توحي بالقصد السياقي من الجو العام للسورة . ومن هذ التقنيات :

تقنية الدفع :

اذ تتمثل في رفض التصورات الذهنية عن الخالق بان له نسبا كما هي المخلوقات فجاء الخطاب من باب الرد بان الله (احد) بصورة الامر ، والامر كما ذكر ابن عاشور له فائدتان في جو السورة ، فالله عز وجل هنا يأمر نبيه بـ(قل) ليتمكن النبي (ص) واتباعه من القيام بالتوحيد والتنزيه كما يريده سبحانه : ((فافتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول كما علمت ذلك عند قوله تعالى : { قل يا أيها الكافرون } [الكافرون : 1]ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى ، وهي أنها نزلت على سبب قول المشركين : انْسُبْ لنا ربك ، فكانت جواباً عن سؤالهم , فلذلك قيل له : { قل } كما قال تعالى : { قل الروح من أمر ربي } [الإسراء : 85] فكان للأمر بفعل { قل } فائدتان .)) (11)

يقول بعض المفسرين عن سبب نزول السورة : أنها نزلت بسبب سؤال اليهود , فقد روى عكرمة عن ابن عباس ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف ، فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه ، وقال : اخفض جناحك يا محمد ، فنزل : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } فلما تلاه عليهم قالوا : صف لنا ربك كيف عضده ، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول ، فأتاه جبريل بقوله : { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ } [الأنعام : 91] وقيل : أنها نزلت بسبب سؤال النصارى ، روى عطاء عن ابن عباس ، قال : قدم وفد نجران ، فقالوا : صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة؟ فقال : « إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء » فنزلت : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } قالوا : هو واحد ، وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شيء ، قالوا : زدنا من الصفة ، فقال : { الله الصمد } فقالوا : وما الصمد؟ فقال : الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج ، فقالوا : زدنا فنزل : { لَمْ يَلِدْ } كما ولدت مريم : { وَلَمْ يُولَدْ } كما ولد عيسى : { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } يريد نظيراً من خلقه .)) (12) هذه الصورة المتعلقة باسباب النزول تحمل المخاطب على ادراك تقنية الدفع المستنبطة من القصد السياقي الموحي بالرد على تلك الشكوك باجرائية الامر الطوعي .

2- تقنية المقارنة : فإيحاء السورة بدءا من الآية الأولى الى نهايتها او كما سميناها بالنتيجة والحجج كلها تقود الى اثبات النتيجة بتقنيات مختلفة غايتها التأثير في المخاطب واستمالته الى

حيث القصد من الخطاب وهو الاقناع والتسليم ، اذ تتضح المقارنة عبر التضاد المنطقي بالشكل التالي :

الله احد ..... النظير

الصمد..... الفقير

لم يلد ..... الوالد

لم يولد ..... المولود

كفوا ..... المساوي.

هذه التقنية من المقارنة تستند على عملية عقلية حجاجية تكشف عن مقاصد التعبير القراني في تلك السورة .. حيث الوصف بما يليق بذات الله بعيدا عما يتصور او يخطر على الذهن.. فالقول بالأحدية أي الاحد يعني ((المتفرد الذي لا نظير له في العلم والقدرة والرحمانية والرحيمية)) (13) والصمد ، هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمر، أي يقصد إليه. وقيل: الصمد الذي ليس بأجوف. والله جلّ ثناؤه الصمد; لأنّه يَصمِدُ إليه عباده بالدعاء والطلب (14) واما لم يلد ولم يولد إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، والربّ الابن، وروح القدس) . فالنصارى تعتقد أنّ المسيح ابن الله، واليهود ذهبت إلى أنّ العزير ابن الله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}[التوبة : 30] .ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله : {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ}[سورة الانعام : 100] . ويستفاد من بعض الرّوايات أن الولادة في قوله: (لم يلد ولم يولد) لها معنى واسع يشمل كلّ أنواع خروج الأشياء المادية واللطيفة منه ، أو خروج ذاته المقدّسة من أشياء مادية أو لطيفة(15) , و(ولم يكن له كفواً أحد) أي ليس له شبيه ومثل اطلاقاً. فالكفؤ: هو الكفئ في المقام والمنزلة والقدر . ثمّ اطلقت الكلمة على كلّ شبيه ومثيل استناداً إلى هذه الآية , لان الله سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكلّ نقص ومحدودية . وهذا هو التوحيد الذاتي والصفاتي , مقابل التوحيد العددي والنوعي الذي جاء في بداية تفسير هذه السّورة(16) .

ثانيا : التقنيات البلاغية والنحوية :

وان كانت ملامح الخطاب الحجاجي تتحدد بما يحاط به من عناصر , فإن أجواء السورة مليئة بالطاقة الحجاجية التي تكشف عنها بعض العناصر البلاغية كالتكرار ، والتكرار في الدرس الحجاجي هو طاقة مضافة تحدث اثرا جليلا في المتلقي وتساعد على نحو فعَّال في إقناعه او حمله على الإذعان , ذلك لان التكرار يساعد على التبليغ والافهام ويعين المتكلم على ترسيخ الرأي والفكرة في الذهن , فاذا ردد المحتج فكرة ما او حجة ما , ادركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي(17) ، وهو ما يلحظ في تكرار لفظ الجلالة في السورة : (قل هو الله احد الله الصمد) , فالتوالي في التأكيد والتكرار للفظ الجلالة فاعلية حجاجية مناسبة لنقطة

الانطلاق التي تبدأ بها السورة وهي توحيد الخالق وتنزيهه عن الاشباه والانداد والاضداد في ذهن المتلقي , لتركيز تلك البنية وترسيخها اكثر عند السامع ((فالتكرار افاد التأكيد ولو اكتفى بالصمد لما افاد هذه الفائدة)) (18) . وتارة أخرى ولّد التكرار هنا سمة حجاجية هي المقبولية التي تنبعث من تداولية لغوية تسمح بانسجام النص وتقبله عند السامع ، فلو لم يأت التكرار لما كان السياق مقبولا لغويا ، يقول الرازي في هذا الصدد : ((ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله : { الله أَحَدٌ الله الصمد } ؟ الجواب : لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا ، إما نكرتين أو معرفتين ، وقد بينا أن ذلك غير جائز ، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكراً ولفظ الصمد معرفاً .)) (19).

اما ضمير الشأنية(هو) فله بُعد حجاجي واقع في حيز السورة مشير الى تكرير الذات الإلهية ثلاثا (هو الله احد) , ومنبها الى استعداد نفسي يترقبه القارئ بعد القول (قل) كي يتم الاقناع بالإفصاح فيما يليه . يقول صاحب الميزان : (("قل هو الله أحد" هو ضمير الشأن و القصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له،))(20)

وفيه إشارة الى مقام الهوية المطلقة من حيث هي هي من دون أن تتعين بتعين الصفات أو تتجلى بتجلي الأسماء . فهو اشارة إلى مقام انقطعت عنه آمال العارفين وإيماءاتهم, ويتقدّس عن كل إسم ورسم ويتنزّه عن كل تجلّ وظهور . وأحد إشارة إلى تجلي الأسماء الباطنية الغيبية, والله إشارة إلى تجلي الأسماء الظاهرية, وبهذه الأمور الثلاثة : ـ(هو) (الله) (أحد) تتحصل الاعتبارات الأولية لحضرة الربوبية, وأن الأسماء الأربعة الأخرى (الصمد) (لم يلد) (لم يولد) (لم يكن له كفواً أحد) التي يكون الصمد جامعاً لها , من الأسماء السلبية التنزيهية , التي تعتبر تبعاً للأسماء الثبوتية الجمالية) (21) . هذه الاستلزامات التكرارية عمقت الحجاج في سياق تنزيه المولى سبحانه وتقديسه باللفظ تارة وبمقامات الدلالة على الذات تارة أخرى .

وللأمر طاقة حجاجية مكتنزة الدلالة اذ به تفتتح السورة ليمتثل المعنى المراد تراتبيا فيما يليه حيث القصد من الخطاب ، وهو خاصية قرآنية تنماز بها كثير من السور القرآنية للإيحاء بالحدث المرافق للزمن في دائرة الموضوع المقصود ، المطلوب تحقيق اجرائيته لما فيه من بواعث دافعة ودلالات كامنة ، هدفها في النهاية الاقناع بملاحظ تفهم من السياق قد تكون للاعتبار او للإرشاد او الالتزام او التحذير وغير ذلك ، ويسميه اوستن ب(الفعل القولي) , لأنه يهدف بالأساس الى صياغة مواقع جديدة بحضور طرفي الخطاب في الزمان والمكان ويرتبط الامر بردة فعل المتلقي (22) . وتتجلى قيمته الانجازية بالحدث الفعلي او ماسيحدث مستقبلا ، والامر بالقول في السورة يراد منه كما يقول القشيري : ((لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أَمَرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } . أي ذُبَّ عني ما قالوا ، فأنت أولى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ في النبيِّ ﷺ تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم . فقال : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم : 1 ، 2] وقال : { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } [النجم : 1 2] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك .)) (23) فرد النبي (ص) مثّل احتجاجا عليهم بتلك الصيغة (قل) وماتلاها من تعجيز يحمل دلالة عقائدية في ذات الله تفضي بهم الى الإذعان والانصياع بعد التجلي في ذكر ما يتعلق بالله من صفات وافعال .

ويتمظهر الخطاب الحجاجي في ثنائية أخرى تقوم على التعريف والتنكير في (احد والصمد) في سؤال ينطلق من تركيب السورة ويتمحور حول دلالة التنكير في (أحد) والتعريف في (الصمد) , وفي هذا الشأن يقول الدكتور فاضل السامرائي : ((حكمة تنكير " أحد " أنها مسبوقة بكلمتين معرفتين " هو الله " وهما مبتدأ وخبر ... وبما أن المبتدأ والخبر معرفتان ودلالتهما على الحصر ... فقد استغني بتعريفهما ودلالتهما على الحصر عن تعريف " أحد ".فجاء لفظ " أحد " نكرة على أصله ... لأن الأصل في الكلمة هو التنكير... فهو نكرة . كما أن لفظ " أحد " جاء على التنكير للتعظيم والتفخيم والتشريف وللإشارة إلى أن الله تعالى فرد أحد لا يمكن تعريف كيفيته ولا الإحاطة به سبحانه وتعالى . أما " الصمد " فقد جاء معرفة في الآية الثانية لأن " الله الصمد " مبتدأ وخبر ... وجاءا معرفتين ليطابقا " هو الله " في الآية الأولى .. وقد جاء تعريف " الله الصمد " ليدل على الحصر أيضاً . فقوله " هو الله أحد " يدل على الحصر لتعريف المبتدأ والخبر (الأحدية محصورة بالله) . وقوله " الله الصمد " يدل على الحصر أيضا لتعريف المبتدأ والخبر (والصمدانية محصورة بالله)(24) وبذلك تكون البنية الحجاجية لكلا المفردتين قد تجانستا مع بعضهما البعض لتقنين العلاقة الدلالية بين مكونات السورة ومن ثم تعميق الاقناع والتأثير في المخاطب بتلك التقانة الجمالية الحجاجية .

والعدول او الالتفات يعد عاملا مبرزا لحضور الفكرة التي لها قيمة حجاجية لأنها تروم التأثير في المتلقي فعن طريق الالتفات يؤثر المرسل في المتلقي ويجذبه ويجعله ينتبه ،لذا فالالتفات يساق بحسب ما يحتاج اليه من تثبيت رؤيا ما (25) , والرؤية المراد تثبيتها في الذهن هي تقرير حقيقة الالوهية كما هي ، لذلك فالعدول في استعمال لفظ الجلالة (الله) دون غيره من الأسماء - أي لماذا لم يات السياق بالقول قل هو الرب احد او قل هو الخالق احد وغير ذلك من الأسماء الحسنى في السورة ؟ - يوحي بان له بعدا حجاجيا تداوليا يتجاوز الدلالة اللغوية لمعنى الذات الإلهية بوصفه اسم علم يدل على الذات الإلهية المستجمعة لجميع صفات الكمال . فيستعمل في سياق الاثبات دون الربوبية وهو اكثر الأسماء ورودا في القران الكريم . يقول فاضل السامرائي : ((لفظ الجلالة الله هو اللفظ العامّ لله تعالى ويُذكر هذا اللفظ دائماً في مقام التخويف الشديد وفي مقام التكليف والتهديد)) (26) وليس ادل من سياق السورة على تلك المقامات بعد الطلب من النبي في ذكر نسب الله سبحانه وتعالى فجاء الرد بذلك التكثيف من الامر والتأكيد على حقيقة المولى جل وعلا , فالله تعالى لا تدرك ذاته ، ولا تعرف ماهيَّته ، وأنه ليس بشيء مما يتصورون ؛ لأنه خالق الأشياء كلها ، فكيف يجوز أن تمثَّل ذاته المقدسة بذوات الأشياء، وهي مغايرة لها تمام المغايرة في حقيقتها وماهيتها ؟ فالاختيار القصدي متعلق بباعث حجاجي يتجاوز إقرار حقيقة اثبات القدرة الإلهية كالأحياء والاماتة وغيرها الى التوجيه والايمان بحقيقة الالوهية حيث الطاعة والانصياع والامتثال .

واذا كانت مراعاة فن القول مؤشر ا في رسم تقنيات الاقناع والتأثير في المخاطب ، فإننا لانعدم ذلك في التمثل التركيبي في السورة (باب القول في البحث) بملمح آخر يضاف الى ما ذكرناه هو (التقديم والتأخير) ، وعلى حد تساؤل الرازي يقول : ((لم قدم قوله : { لَمْ يَلِدْ } على قوله : { وَلَمْ يُولَدْ } مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً ، ثم يكون والداً؟ الجواب : إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد ، لأنهم ادعوا أن له ولداً ، وذلك لأن مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ولم يدع أحد أن له والداً

فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال : { لَمْ يَلِدْ } ثم أشار إلى الحجة فقال : { وَلَمْ يُولَدْ } كأنه قيل : الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره)) (27) " فما جرى ان تلك التقنية او العملية التي من خلالها سعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه قد تمت بواسطة الوسائل اللغوية . اذ ان التقديم في (لم يلد) على (لم يولد) أتاح لمساحة الحجاج التداولي ان تكون مصحوبة بحمولات من المعنى المؤثر في المخاطب . كما أورده الرازي .

اما النفي فيما نرى فهو تلفظٌ ذو توجيه على توجيه لذلك بمجرّد إدماج عامل النفي تتحدّد النتيجة "ن" بسرعة ولا يجد المتقبّل حرجا أو كدّ ذهن في إدراك المفهوم , بل إنّ عامل النفي كمفهوم علاوة على وظيفته التوجيهية في الخطاب الحجاجي , فإنّ له قيمة مضافة وهي على حدّ عبارة ديكرو " أنّه ضروري لوصف البنية الدلالة العميقة للملفوظ الذي يبدو غير منفي (28) , وعادة ما يستخدم في المواجهة الاقتناعية لقلب اعتقاد الخصم والقطع مع ادعائه ... ولا يقف عند حدود الجحد , بل ينجز كذلك فعل التعويض الذي يتمثل في ابطال معلومة الخصم وامداده بمعلومة أخرى (29) ، وهذا ما تمثل في قوله تعالى : ((لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد)) , فتكرار العامل الحجاجي (لم) الدال على النفي هو اجراء لتغيير قناعات الاعتقاد في كون الله مولودا او والدا أو له مشابه بعد ان كانت تلك الاعتقادات سائدة في المخيال البشري آنذاك ، فالنفي المكرر جاء توكيدا وترسيخا لحقيقة تنزيه الله سبحانه من تلك الأوهام .

ولعاملية النفي الحجاجية علاقة وثيقة بالسلم الحجاجي اذ يعده ديكرو : ((أدقّ العوامل في تحديد منزلة الملفوظ من السلم الحجاجي)) (30) لان من خلاله تتضح علاقات التتابع الحجاجية وصولا الى النتيجة . وهو ما يلحظ في السورة , فقد تجسد متكاملا مترابطا بشكل متوالية احدها مكملا للأخرى. بوصف السلم ((عبارة عن مجموعة غير فارغة من الاقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفّية بالشرطيين التاليين : ا. كل قول يقع في مرتب ما من السُلم يلزم عنه ما يقع تحته ، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه . 2- كل قول كان في السُلم دليلا على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه)) (31) ويمكن ان نرمز لها بالمخطط الاتي :

ن : نتيجة

أ , ب , ج , د : حجج متدرجة في القوة تخدم النتيجة (ن)

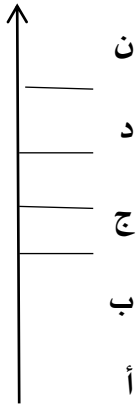

ن ___ ___ التوحيد

د _____ الله الصمد

ج _____ لم يلد

ب _____ لم يولد

أ _____ لم يكن له كفوا أحد

فلا تخفى العلاقة بين الآية الاولى والآيات التابعة لها التي تتحدّث عن وحدانية الله ، لأنّ واجب الوجود والغني وحاجة جميع الموجودات إليه تستلزم أن يكون واحداً وأحداً . وفي الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة النصارى في الآلهة الثلاثة (الأب ، والإبن ، والواسطة بينهما) ، وتبطل عقيدة اليهود بأنّ عزير ابن الله . كما تبطل عقيدة المشركين العرب في أنّ الملائكة بنات الله ، أجل ، انّها ومن أجل نفي هذه الأُمور كلّها وأمثالها تقول (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) .ومن المسلّم به أن يكون للوجود الذي له ولد أو والد شبيه ومثيل ، لعدم إمكانية إنكار الشبه بين الأب والإبن ، وعليه لا يمكن أن يكون واحداً ولا مثيل له . ولذا يقول بعد هذه الآية : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفوَاً أحَد) .وعليه فإنّ الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكّد على أحدية الله المقدّسة ووحدانيته وعدم الشبيه والمثيل له ، وبعبارة أُخرى تكون كلّ آية في هذه السورة تفسيراً للآية السابقة لها ، وبمجموعها أوضحت مسألة التوحيد بشكل جامع وتامّ وتجسّدت شجرة التوحيد الطيّبة بكلّ أغصانها وأوراقها(32) , فانتقال السلم الحجاجي من النتيجة الى الحجج عزز نواة التماسك الدلالي بين مكونات السورة ضمن مسارات حركية تمثلت تارة بالجملة الاسمية وأخرى بالجملة الفعلية المنفية ، ((فالآيتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئا بتجزئة في نفسه فينفصل عنه شيء سنخه بأي معنى أريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح (عليه السلام) إنه ابن الله , او كما يقول الوثنية في بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه وتنفيان عنه أن يكون متولدا من شيء آخر ومشتقا منه بأي معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنية , ففي آلهتهم من هو إله أبو إله , ومن هو آلهة أم إله , ومن هو إله ابن إله , وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله و هو الإيجاد والتدبير)) (33).

الهوامش

1. ينظر : مفاتيح الغيب : 292/17
2. ينظر: تفسير النيسابوري: 7/ 395
3. عدة الأدوات الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته : 206/2
4. ينظر: الميزان : 222/20
5. م.ن :222/20
6. م.ن :223/20
7. ينظر : التحرير والتنوير: 427/16
8. الخطاب والحجاج: 68
9. الحجاج في القران : 47
10. الكشاف : 337/7
11. التحرير والتنوير:433/16
12. ينظر : مفاتيح الغيب: 293/17
13. تفسير الأمثل :548/20
14. م.ن :553/20
15. م.ن :554/20
16. م.ن : 554/20
17. الحجاج في الشعر العربي بنيته واساليبه: 168

18. منة المنان : 91
19. مفاتيح الغيب : 302/17
20. الميزان : 302/17
21. الاربعون حديثا : 82
22. الحجاج في الشعر العربي بنيته واساليبه :147
23. لطائف الإشارات :113/8
24. الاعجاز البياني : السامرائي:
25. اسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي : 189
26. الاعجاز البياني : السامرائي
27. ينظر : مفاتيح الغيب : 303/17
28. النفي في العربية : 67
29. ينظر : بلاغة الاقناع في المناظرة : 225/224
30. نظريات الحجاج : 92
31. اللغة والحجاج :20
32. ينظر : نفحات القران : 66/8
33. ينظر : الميزان : 20/ 323.

خاتمة البحث ونتائجه

- ✓ الحجاج نشاط عقلي يعمل على استثارة العقل وإزالة الراكد من التفكير كما تبين في السورة دون ان يبتعد عن المنحى النفسى والوجداني في استمالة المخاطب .
- ✓ انفتاح الملفوظ الخطابي في السورة على رؤية متحركة في مساحة الزمن ، فالتعدد في الالوهية لا يقف حصرا عند أسباب النزول , بل في كل آن يمكن ان يزل الانسان في مجانبة حقيقة المطلق او ادراك كنهه . ليتخذ من دونه وليا .
- ✓ اسفر البحث عن استثمار تقنيتين منطقيتين في الحجاج ، الأولى : تقنية الدفع وتمثلت في رفض التصورات الذهنية عن الخالق بان له نسبا كما هي المخلوقات فجاء الخطاب من باب الرد بان الله احد بصورة الامر، والثانية : تقنية المقارنة فإيحاء السورة بدءا من الاية الأولى والى نهايتها كلها تقود الى اثبات النتيجة بتقنيات مختلفة غايتها التاثير في المخاطب واستمالته الى حيث القصد من الخطاب وهو الاقناع والتسليم.
- ✓ تمثل البعد الحجاجي في منحى الأسلوب الطلبي المقترن بالتكرار والنفي والتقديم والتاخير من اجل اسباغ الممارسة الاقناعية في المتلقي للخطاب .
- ✓ ترشح من البحث حضور العلاقات الحجاجية في الخطاب كآليات استعمالية تعمد على تحقيق التوازن في الخطاب وقرع الحجة بالحجة او تعديل فكرة وتصحيح معتقد للتدليل على قوة الاستدلال في اثبات المنزع التوحيدي .
- ✓ تجلي الفاعلية الحجاجية في استثمار التكرير للذات الإلهية اسما صريحا او صفة او ضميرا في سلم تصاعدي يزيل اللبس عن حقيقة الذات ويؤكد يقينية الحقيقة الموصوفة لخالق الكون ومدبره .

- ✓ تنوع المعطى الاسلوبي في السورة اوجد سمة حجاجية لها اثرها في استمالة المتلقي والانتقال به من امر الى آخر وصولا الى دلائل الاثبات الاقناعية .
- ✓ اتجاه السلم الحجاجي في صورة تصاعدية باد في التسلسل الوصفي للذات الإلهية منطلقا من الاحدية وانتهاء بنفي النظير له دلالاته في تأكيد الخطاب القراني على مراعاة التدرج في التعاطي الذهني مع المخاطب .

مصادر البحث ومراجعه

1. الاربعون حديثا ، الامام روح الله الخميني ، قم المقدسة ، د.ت.
2. اسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي ،مثنى كاظم صادق ، منشورات ضفاف ،الرباط،ط1 2015.
3. الاعجاز البياني في القران، فاضل السامرائي ، بيت الحـــــكمة ،بغداد ،1986، 1987.
4. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ،دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان / الطبعة الثانية 1426_2005 م.
5. بلاغة الاقناع في المناظرة ، عبداللطيف عادل ، منشورات ضفاف ،بيروت ، ط1، 2013.
6. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، 1997.
7. الحجاج في القران من خلال اهم خصائصه الاسلوبية ،عبدالله صوله ، دار الفارابي ، بيروت،ط1، 2001.
8. الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزازي ،مؤسسة الرحاب الحديثة ، لبنان ، د.ط 2010.
9. الحجاج في الشعر العربي بنيته واساليبه ، سامية الدريدي ،عالم الكتب الحديث ، اربد الأردن ، ط2، 2011.
10. الحجاج مفهومه ومجالاته ، حافظ اسماعيلي عليوي ، عالم الكتب الحديث ،اربد الأردن ، ط1 2010 .
11. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل، الزمخشري ، بيروت دار الكتاب العربي ، د.ط . د.ت.
12. لطائف الإشارات عبد الكريم القشيري – تحقيق د. إبراهيم بسيوني – الهيأة المصرية الـــعامة للتاليف والنشر – 1971.
13. مفاتيح الغيب ، الرازي، دار الكتب العلمية ، طهران ، د.ت.

14.الميزان في تفسير القران ، الطبطبائي ، مؤسسة الاعلمي للطباعة بيروت ، ط1، 1997.
15.منة المنان في الدفاع عن القران ، محمد محمد صادق الصدر ، منشورات ذوي القربى ،قم ، ط1 1426.
16.نظريات الحجاج . جميل حميداوي ، الناظور ، د.ط 2012.
17.نفحات القران ، جعفر سبحاني ، قم المقدسة د.ط.

Abstract

The Quraan text is charachtarized with special features that made researchers study it for doctrine, legalization, phylosophy, and language. It is descrbed as an argumentative text dealing with different thoughts and illusions and it is impossible to be wrong. It endears and terrorizes and tries to convince people in a purposeful language. Its style varies from the argumentative to the sffectionate aspects.

This paper investigates the argumentative strategies in Al-Tawheed surah where the argument is clear, it denies the previous concepts and establishes the correct alternative. The rationative, interesringess and rhetorical strategies are adopted in the argument, whoever, the rationative one is present more.